أشواق إلى الابتسام

قصة بقلم ابراهيم أبو ناب

عندما وصل المصعد الى الطابق الارضي ، خرج منه اثنان ، رجل وامرأة . لقد قطعا معا مسافة سبعة طوابق ثم خرجا وكأنهما امضيا معا سبع سنوات من المعرفة . كانا يتمازحان ويتضاحكان في مرح وانشراح . ذاك مشهد يفتح نوافذ القلوب في لندن اتقاتمة . اذا رأيت انسانا يضحك او يبتسم عادت اليك روحك مثلما يعود الغريب الى اهله بعد غيبة طويلة .

كان المصعد من ذلك النمط الالكتروني الناعم الذي يعمل بذكاء تكنولوجي . وكان هو في المصعد عندما دخلت هي اليه . ولكنها ما ان دخلت حتى وقفت مترددة تهم ان تعود . وسألته على عجل اذا كان المصعد نازلا . ونظر الرجل فيما حوله كأنه يصحو لاول مرة على حقيقة وجوده في المصعد . واخذته النكتة فقال لها :

ـ لا ادري في الواقع اذا كان نازلا او صاعدا . المهم ان تدخلي اولا ونحل الاشكال بعد ذلك .

دخلت المرأة وهو يضحك واخذت تضحك هي الاخرى . كانت سمراء حلوة ذات عينين تذكران بجريد الموز وسعف النخيل في غابة استوائية . وعندما تحرك المصعد نازلا تنهدت وقالت :

ـ الحمد لله .

وقرقر هو ضاحكا في ألفة وتعجب وقال لها :

ـ تحمدينه على ماذا ؟ على النزول ؟

وشعرت هي كأنما هو قد ضبطها على حين غرة في حالة سخف فراحت تستر موقفها بما يصل اليه لسانها من اعذار :

ـ احيانا اكون مستعجلة اريد الوصول الى الطابق الارضي في اسرع وقت لكي الحق بباص الساعة السادسة فيأخذني المصعد الى الطابق العشرين قبل ان يعود بي الى الارض . وتكون النتيجة انتظار نصف ساعة حتى يأتي الباص الاخر .

اخذا يضحكان وقال لها :

ـ ولذلك فانني من ناحيتي قد توصلت الى سلام مع المصاعد . توقفت عن محاولات فرض رغائبي المسبقة عليها . فانا ادخل اليها كالذي يتمشى نائما وانتظر حتى تنفرج ابوابها عن المكان الذي أريده فاخرج في هدوء .

اغرقت هي في الضحك وضربت الارض بقدمها وهي تضحك ، فأعجبه ذلك واردف قائلا :

ـ يجب ان تعرفي ان الوقت الذي كنا نسيطر فيه على المصاعد ونسيرها حسب رغباتنا من طابق الى آخر قد مضى وانقضى . لقد نالت المصاعد حقوقها وحرياتها منذ ان اكتشفت ان لها ادمغة الكترونية افضل من ادمغتنا .

كانا ما زالا يضحكان عندما خرجا من المصعد عند الطابق الارضي . وكانت هي تهم بالركض مبتعدة عنه لكي تلحق بالباص ولكنه استوقفها ورفع الى وجهها ساعة يده وهو يقول لها ان باص الساعة السادسة قد فاتها فعلا . وفجأة ذهبت الريح من شراعها وهدأت واخذت عيناها تتساءلان : ماذا افعل الان ؟ وقال لها بصورة عادية جدا :

ـ انت مدعوة الى فنجان شاي خلال فترة انتظار الباص الثاني اذا كنت تقبلين دعوتي ... حتى نكمل حديثنا عن حركة تحرر المصاعد .

لعلها كانت تحس انه سيدعوها وهو يشعر انها ستقبل دعوته . ولعلهما كانا يتعاونان بصورة خفية على اقتناص المبررات الواهية للبقاء معا مدة اطول حتى يستمتعا بتلك الألفة العفوية التي حللت نفسيهما من التحفظ في ثوان معدودات . وبدلا من ان تسير هي في الاتجاه المضاد عادت وسارت معه الى مقهى مجاور وكأنهما متفقان على مثل هذا الموعد منذ وقت طويل .

عندما جلست في مقابلة حول المائدة الصغيرة حانت منها نظرة الى ساعة الحائط فرأت ان الساعة لم تبلغ السادسة بعد . وانفرجت عيناها الاستوائيتان عن غضب شفاف لا يخفي ما وراءه من دهشة وسرور. وقالت له :

ـ الست مخيفا ؟

ـ مخيف ؟ لماذا ؟

ـ لقد خدعتني .

ـ خدعتك في ماذا ؟ نحن لم نبدأ بعد ...

ـ جعلتني اظن انني قد تجاوزت موعد الباص والساعة ما زالت لم تبلغ السادسة !

سقط رأسه على صدره مقرقرا وعيناه تنظران اليها في عبث ماكر :

ـ لا يا آنستي ... ساعة الحائط هي خطأ .

اعادت النظر الى ساعة معصمها ثم رفعتها الى وجهه لكي يتأكد ان الساعة ليست على خطأ .

وتناول هو يدها كما لو انها تمد يدها اليه لكي يقبلها فسحبت يدها بسرعة وراحت تبتسم في حياء ظاهر . هذا الرجل طريف وذكي واليف وماكر ومرح . راحت تتملى في تقاطيع وجهه . كان اسمر اللون ايضا من بلاد بعيدة لم ينقطع فيها حبل الاتصال ما بين

الانسان وقلبه . وقد اكتسب في هذه البلاد مهارة الحوار المبطن والتهذيب في الطلب . هذا النوع من الرجال انما هو ثمر لا تجود بمثله الاشجار كل يوم . ورآته يلملم اطرافه كأنما هو يريد ان يتوقع تواضعا او ان يتراجع الى حجم انسان عادي . وقال لها :

ـ الوقت دائما موجود . لماذا كل هذا الحرص على كسب الوقت؟ باص الساعة السادسة يأتي دائما في الساعة السادسة . اما انا يا آنستي فلا آتي دائما مع مثل هذه الصدف .

احست بأن الذئب في جسمه يحاول ان يخرج من فروته وراحت تتخذ الاحتياطات اللازمة . وقالت له في نفس اللهجة من الدعابة :

ـ لا اعتقد انك مغرور الى هذا الحد .

ـ ومن منا يستطيع ان يدعي انه بلا غرور .

ـ انك ذرب اللسان تدافع عن نفسك بمهارة .

ـ اذا كنت انتهيت من وضعي في موقف الدفاع عن النفس فانا اعترف منذ الان بالهزيمة الملحقة .

اخذ يململ لبدته كالاسد الذي لا يضيره ان يتأرنب امام الارانب . ولم يترك فرصة للتحفظ ان يستولي عليها فاردف بسرعة :

ـ وما دمت منهزما فهل لي ان اطلب منك سيجارة ؟

ـ عفوا ... انني لا ادخن .

ـ آه ... لا تدخنين ... ارجو ان تكون فضائلك مقتصرة على عدم التدخين .

ـ اطمئن من هذه الناحية !

لمعت عيناها بالمكر والعبث وراحا يقرقران ، واخرج هو سيجارة واشعلها ثم رشف شيئا من فنجان الشاي واخذ يجمع نفسه كأنه يستعد ليوم من العمل .

ـ والان حدثيني ...

ـ احدثك عن ماذا ؟

ـ انت الان كالدائرة التي تدور حول محورها هاربة من القواطع وخطوط التماس .

انني لم اعرف اسمك بعد وانت لم تحاولي ان تعرفي اسمي .

وبتلويحة من يدها تدل على عدم الاكتراث ابعدت التهمة عنها وقالت :

ـ ماذا تهم الاسماء ... الاسم ما هو الا رقم تليفون أو عنوان برقي اختاره لنا آباؤنا قبل ان نكون قادرين على اختياره . اسمي على كل حال هو ايفون .

ـ ايفون ؟ ايفون ماذا ؟

ـ وهل اخترت انت الشق الثاني من الاسم ؟

اطرقت ايفون قليلا ثم رفعت رأسها وحدجته بنظرة دعابة .

ـ هل هذه هي طريقتك في الاستفسار عما اذا كنت متزوجة ؟ انت ماهر جدا وجوابي هو انني متزوجة . والان قل لي : ما اسمك قبل الزواج وبعده ؟

اخذا يضحكان من جديد وقال لها :

ـ حركة تحرير المرأة تريد ان تجعل لكنّ اسما واحدا قبل الزواج وبعده مثلنا تماما . ولكن ما الفائدة ، فانها ستحرمكنّ من حرية اختيار اسم غير الذي اعطاكنّ اياه اهلوكنّ عند الولادة .

هزت رأسها ايجابا كأنما هي توافقه على رأيه واردف هو بسرعة :

ـ اسمي على اي حال هو حسن ... حسن العمواسي . انه اسم عربي . بامكانك استعمال الاسم الاول فقط . وهو يعني جيد وطيب وقوي الخ ... واحب ان اخبرك ان اسمي يطابق جسمي خصوصا عند النوم . اما بعيدا عن الفراش فاحيانا اشعر انني قد اكون اي انسان آخر ... جون مثلا او مايكل او جورج .

ـ آه ... انت حسن في السرير اذن فقط . اما في غير ذلك فانت لست حسنا ... يجب عليّ ان افكر في ذلك .

ـ لا ... لا ... المسألة لا تحتاج الى اعمال فكر .

ـ صدقني انها تحتاج الى فكر كثير والى مفاوضات اطول من مفاوضات احلال السلام في فيتنام . ذلك أن فيها اطرافا اربعة . هانوي وسايغون وجبهة التحرير والاميركان .

ـ الا تعتقدين ان سايغون ستسقط في النهاية ؟

ـ تعني يتم تحريرها ؟

نصف ساعة على هذا الحال من المزاح والضحك حتى كادت ايفون ان تسهو عن موعد انباص الثاني الذي سيأخذها الى بيتها والى زوجها. واكتشف خلال تقاذف الكرة الكلاميه أن ايفون من جامايكا . ولكنه لم يعرف بالتأكيد كم سجل هو من الاهداف وكم سجلت هي او ما اذا كانا قد خرجا متعادلين . ولا بد من مباراة اخرى .

وبعد أيام قليلة كان اللقاء الثاني . التقى كيسنجر مع لي دوك ثو في مكان خارج باريس بعيداً عن أعين الصحفيين والات التصوير . وقد اتخذت جميع الاحتياطات اللازمة تلامن على حد قول الصحافة . وبينما كان العالم كله يترقب ما يمكن ان تسفر عنه تلك المفاوضات وبينما كان المحللون السياسيون يحللون والمراقبون الاقتصاديون يراقبون اسواق البورصة والدولار يصعد وينزل ، كان كيسنجر يضع يده في جيبه ليتأكد من انه قد احضر معه جوارب منع الحمل وما اذا كانت صديقته ليندا قد وصلت بالفعل الى الغرفة المخصصة لها في تلك الفيلا الهادئة .

وعلى طاولة المفاوضات بدأ حسن بدبلوماسية رائعة :

ـ انت اليوم اجمل بكثير مما رأيتك اول مرة . (وردت ايفون ببراءة وهي لم تلتقط بعد الخط الدبلوماسي الذي يجب ان يسير عليه الحديث) .

ـ اشكرك ... ما هو انسب جواب في مثل هذه الحالة ؟ هل المفروض ان اقول انك ايضا اجمل بكثير مما رأيتك أول مرة . نحن في بلادنا لا نجد غضاضة في ان نقول كلاما من هذا القبيل للرجال .

ـ المرأة تتمتع بحرية هناك اذن ؟

ـ ليست حرية وانما هي طبيعة .

وسرحت أيفون بنظرها الى البعيد . القطارات تزحف مثل الافاعي فوق الجسور ومن تحتها الاف السيارات . ومداخن المصانع ترتفع في عنان السماء كالمناظر البذيئة . وضجيج المدينة يعبر الملاعب الخضراء ليترامى عند أقدامها خافتا في ذلك المطعم الهادىء والغالي السعر . وجاء النادل الانجليزي الاشقر النشعر الذي يلبس معطفا عنابيا وقميصا ناصع البياض منشى اليافة ووقف وفي يده دفتره الصغير لاخذ المطلوب .

وراح حسن وايفون يدرسان قائمة المأكولات والمشروبات بتمعن . وعادت ايفون تكمل حديثها :

ـ في جامايكا الشمس اقرب الى الارض ، ولذلك فان الاشياء اقرب الى طبيعتها .

وتساءل حسن وهو يتصنع الدهشة :

ـ هل عندكم كميات كبيرة من الشمس هناك ؟

ـ بالتأكيد ، هذا ما تجود به بلادنا .

والتفت حسن الى النادل بجدية مفتعلة وقال :

ـ هذه السيدة تطلب شيئا من الشمس . هل عندكم اي شمس ؟

وقال النادل في تهذيب تام :

ـ لا .. لم اسمع بهذا النوع من النبيذ يا سيدي .

ـ انه ليس نوعا من النبيذ .

ـ اذن فما هو يا سيدي ؟

ـ هو شمس . الم تر شمسا في حياتك ؟

ـ التتمة على الصفحة ١٣٥ ـ

اشواق الى الابتسام

ـ تابع المنشور على الصفحة ٦٤ ـ

ـ لم نرها في الصيف الماضي يا سيدي . كدنا ان ننسى اسمها فلا ندري ان كانت نوعا من النبيذ او نوعا من الفواكه الاجنبية .

ـ ارجو ان تحصلوا عليها بعد دخولكم السوق الاوروبية المشتركة.

ـ ارجو ذلك يا سيدي .

ـ لم تستطع ايفون ان تضبط اعصابها اكثر من ذلك وانفجرت ضاحكة وصار صدرها يعلو ويهبط كالمنفاخ . وراح حسن يسمح للضحك بان يتفلت من بين اسنانه بينما لم تصدر عن النادل الانجليزي الا ابتسامة طفيفة جعلته ربما يحس بصلابة ياقته التي تفرض عليه الا ينزلق الى الالفة او الابتسام . ومضى النادل عنهما وقد اخذ طلباتهما وما زال يبتسم بينه وبين نفسه ويعجب من هؤلاء الاجانب .

قالت ايفون وهي تعود الى نفسها وتلتقط انفاسها من بين انقاض الضحك :

ـ ما امهرك ! ان لديك قدرة عجيبة على تعرية الناس بسهولة واكتشاف مقدار ما يتمتعون به من ذكاء .

ـ او غباء .

ـ غباء بالتاكيد .

لا ... لا تستخفي بذكاء هذا الرجل . لقد كان يحاول ان يسخر منا على طريقته . ان عمله لا يسمح له بان يكيل الصاع صاعين للزبون . ولئلا يخطىء في معاملة الزبائن المختلفي الامزجة فانه يتشبث بالاسلوب الاسلم الا وهو الجدية المهذبة .

ـ اهذا هو سر جدية الانجليز وبرودهم ؟

ـ بالتاكيد .

ـ ربما تساعدني على ان افهم زوجي .

ـ هل هو انجليزي ؟

ـ نعم .

ـ ومنذ متى تزوجتما ؟

ـ منذ سبع سنوات .

ـ كل هذه المدة ؟

ـ نعم .

ـ ولم تفهميه حتى الان ؟

ـ ما زلت اشعر بالعجز احيانا .

ـ هل تحبينه ؟

ـ نعم احبه .

ـ فما هو الاشكال اذن ؟

ـ انه مهذب ... مهذب جدا . تصور انني احيانا اقول اسخف الاشياء بل وافعل اسخف الاعمال لا لشيء الا لمحاولة استفزازه واخراجه عن طوره . اريد ان اراه غاضبا . اريد ان اراه ضاحكا . اريد ان ارى الفصول فيه . ابحث عن الخريف والشتاء والصيف والربيع ، ولكنني لا اجد الا اللون الرمادي .

ـ اخبريني اذن .. كيف بدأ كل شيء ؟ كيف احببته ؟ كيف جئت الى لندن اولا ؟

ـ ولدت في جامايكا .

ـ هذا واضح .

ضحكا قليلا ثم عادت تكمل القصة :

ـ كنت جميلة ، او هكذا كان يقول كل من يراني . وكنت افيض بالحيوية والمرح ، لا يسلم انسان من عبث طفولتي . وكلما ازداد عبثي كلما ازداد حب اهلي ومعارفي لي وزادوا في اطرائهم . ولعلي قد ركبني الغرور فكانوا يقولون دائما : اوه انها رائعة ... ستكون ملكة جمال العالم . ستكون نجمة من نجوم السينما . يجب ان تذهب الى لندن عندما تكبر ، فهناك اقدارها التي تنتظرها . في جامايكا كانت لندن بالنسبة لنا هي المكان الذي يسكن فيه خالق الكون ويوزع على الناس اقدارهم اذا ما هم جاءوا اليه . وهكذا انغرست في وجداني فكرة القدوم الى لندن . وجئت الى لندن ابحث عن المجد الذي اخبرني كل من رآني انه ينتظرني في هذه البلاد . والتحقت بالاكاديمية الملكية للفنون الدرامية ، وعندما انهيت تعليمي لم اعد الى جامايكا . ماذا افعل هناك لو عدت . بقيت هنا ابحث عن المجد والشهرة .

بدت رنة اسى في صوت ايفون وكان دمعة كانت تجول في مآقيها تحاول ان تخرج . وقال حسن في اهتمام :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ ادركت هنا ان المجد لا ينتظر احدا وانما هو مرهون بالسعي والعمل الجاد والعرق ، وعلى الانسان ان يبدأ من اسفل السلم . وهو قد يصل الى القمة او لا يصل . قد يقع من وسط السلم وقد لا يصعد الا درجة او اثنتين . المهم ، كان اهلي يصدقون ذلك الوهم الذي صنعوه لي وينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي اتخرج فيه من الاكاديمية لكي اعود اليهم في علب الافلام السينمائية القادمة من لندن . تصور انهم كانوا يذهبون لمشاهدة كل فيلم جديد لكي يروني فيه وعندما لا يجدونني كانوا يكتبون لي معبرين عن مدى خيبة املهم . وذات يوم وجدوني في احد الافلام . خادمة في بيت ارستقراطي اقاسي من عنت ربة المنزل وغيرتها على زوجها .

وابتسمت ايفون في اسى واردفت :

ـ هل تدري ماذا كانت رسائل اهلي تحمل من انطباعات بعد ذلك الفيلم ؟ تستطيع ان تتصور بنفسك .

ـ ماذا .

ـ طلبوا مني العودة الى جامايكا لكي اتزوج هناك بدلا من البحث عن رجال سيكوند هاند في بيوت الناس الاخرين . ايفون ... ماذا حدث لك ؟ هل اضعت عقلك وصوابك في لندن ؟

ـ الم تفسري لهم ان ذلك لم يكن الا دورا تمثيليا في فيلم ؟

ـ اعتقد انهم يعرفون . ولكنهم لم يحبوا الدور . هناك في البلاد تترعرع الاوهام فتصبح حقائق . الحقيقة والوهم يصبحان وجهين لعملة واحدة. اظن ان الناس في كنفرتاون عاصمة جامايكا راحوا يتحدثون عن ايفون التي تعمل في لندن وتحاول اختطاف زوج سيدتها . وكان ذلك مصدر ازعاج وعار لاسرتي ... على اي حال لم اعد استطيع العودة الى جامايكا وكان لا بد من قبول ادوار صغيرة في هذا الفيلم وتلك المسرحية وبعض التمثيليات الاذاعية . وكانت الحياة صعبة . احيانا كنت اعمل خادمة في مطعم لكي استطيع الحصول على وجبتين في النهار . الى ان التقيت بريتشارد . كان وحيدا يتردد على المطعم لوحده . وكان يعمل في مصرف قريب . وذات يوم دعاني الى الخروج معه ثم عرض عليّ الزواج منه في اول لقاء .

نفض حسن رأسه في دهشة وقال :

ـ وقبلت فورا ؟

ـ قبلت فورا .

ـ هل كنت تحبينه ؟

ـ المسالة لم تكن مسالة حب للوهلة الاولى مثلما يحدث في الاساطير . اعني ان المسالة لم تكن كلها حبا . ارجو انك تدرك ما اعني . ولكني كنت سعيدة . لقد بدأت اجد بيتا بديلا لبيتي ووطنا بديلا عن وطني . فعندما يفقد الانسان وطنه عليه ان يجدد احبابا واوطانا ... هذه طبيعة البشر .

سقط رأس حسن فجأة على يديه . واحست ايفون ان شيئا ما قد وخزه بقوة فوضعت يدها برقة على رأسه وقالت :

ـ هل تشعر بشيء ما ؟ ارجو ان لا يكون حديثي مؤسيا او مملا .

ورفع حسن رأسه واخذ بيده كاس النبيذ وشرب جرعة كبيرة ثم عاد اليها يقول :

ـ اعيدي الجملة الاخيرة .
ـ اية جملة ؟
ـ فيما يخص الوطن الجديد .
ـ قلت عندما يفقد الانسان وطنه عليه ان يجدد احبابا واوطانا .
هز حسن رأسه في يأس وقال :
ـ هل هذا ممكن ؟
ـ ممكن طبعا .
ـ هل يستطيع الانسان ان يفعل ذلك دون ان يخسر شيئا مهما من ذاته ؟
راح كل منهما يحدق في عيني الاخر كانما هو يريد ان يكتشف الخسران . واخذت ايفون جرعة من كأسها وقالت :
ـ اعتقد انك على حق . هل لك تجربة في هذا الشأن ؟
قال في مرارة :
ـ كلانا في نفس القارب مع اختلاف بسيط هو انك تستطيعين العودة الى جامايكا في اي وقت تشائين ، وانا لا استطيع العودة الى عمواس حتى ولو حاولت .
ـ عمـواس ؟
ـ نعم هذه قريتي .
ـ لماذا لا تستطيع العودة اليها ؟
ـ لانها لم تعد هناك .
ـ ماذا تعني : لم تعد هناك ؟
ـ ازيلت من الوجود .
ـ زلزال ؟
ـ لا ... ازالتها الجرافات .
ـ اين هي عمواس ؟
ـ قرية في فلسطين .
ـ ولكن لماذا ومتى ازيلت ؟
ـ بعد حرب الايام الستة قرر المحتلون ان يزيلوها من الوجود ويزرعوا مكانها شعيرا .
ـ يا للقسوة ! ليس اقسى من ان يفقد الانسان مرابع طفولته . ولكنك تستطيع العودة الى فلسطين ، اليس كذلك ؟

ـ وفلسطين لم تعد هناك .
ـ انك تمزح بالتأكيد .
ـ لا لست امزح . لقد ازيلت من الخارطة ولم تبق موجودة الا هنـا .
واشار حسن الى صدره واردف :
ـ هذا المكان دائما يؤلمني .
هزت ايفون رأسها في اسى وقالت :
ـ لست افهم . هل من الممكن ان تبتعد قليلا عن الالغاز وتبـدأ بالتوضيح ؟
ـ لن احاول ان اشرح لك اكثر مما شرحت .
ـ ولمـاذا ؟

ـ لانني تعبت ... تعبت من الشرح . وجدت الا فائدة منه . لا استطيع في نصف ساعة أن اوضح ما تآمرت الاجهزة الدولية عـلى طمسه ومحو معالمه . دعينا نعود الى قصتنا .

ظلت ايفون ساهمة تنظر في وجهه لا تريد ان تتزحزح . وجـاء النادل بلون آخر من الطعام وهما صامتان ساهمان . وقال حسـن للنادل محاولا كسر جمود الصمت :
ـ قلت لي انكم لا تقدمون الشمس للزبائن . اليس كذلك ؟
وقال النادل وقد بدأ يستجيب للالفة قليلا :
ـ اعتقد ان الشمس تطلع بكثرة على البلاد التي جئت منها ياسيدي.
ـ الشمس في الاصل خرجت من بلادي . نحن الذين اخترعناها . ولكننا للاسف نسينا تسجيل الاختراع فجاء الينا واحد من بلادكم وسرق الماركة ووضعها على قنينة الامبراطورية فصارت امبراطوريتكم تحمل ماركة « البلاد التي لا تغيب عنها الشمس » .

وابتسم النادل وكاد ان يضحك للمرة الاولى . ثم تساءل فـي مـودة :
ـ من اين انت يا سيدي ؟
ـ من فلسطين .
وهز النادل رأسه كانه يتذكر ثم قال :
ـ نعم كانت فلسطين جزءا من الامبراطورية . ولكن اللورد بلفور وعد اليهود بها وعمل بعض الاشياء التي لم يكن ينبغي ان يعملها . وغيره كثيرون امثاله ، فأضعنا الامبراطورية وانظر الان اين اصبحنا . لا نستطيع المحافظة على ايرلندة الشمالية . ومن يدري فقد نخسر اسكوتلندا وويلز ونصير في اوضاع اسوأ من اوضاعكم .
رد حسن في سخرية لاذعة :
ـ كم انا مشفق عليكم ! كم انا ارثي لحالكم ! وعلى اي حـال فلا بأس عليكم . فما زالت عندكم لندن على الاقل ، وما زال الكثيرون يعتقدون ان موزع المقادير موجود في قصر بكنجنهام .
عاد الابتسام قليلا الى وجه ايفون وادركت ما عناه حسن . وعاد حسن اليها يقول :
ـ ايفون ... وجهك جميل . انه يذكرني بنساء بلادي .
ـ انت تذكرني ببلادي ذاتها .
ـ اتفقنا اذن ... فانت وطني وانا وطنك . آمل الا تنتهي حدود علاقتنا عند فنجان من الشاي او كأس من النبيذ .
خفضت ايفون عينيها ورآها تبتسم لنفسها في وجل ثم عادت عيناها الاستوائيتان اليه :
ـ ان عندي ضعفا تجاه وطني ولكنني ارجو الا يستغل وطني هذا الضعـف .
واخذ حسن يستوعب في رأسه ما قالت ثم رفع رأسه اليها سائلا :
ـ هل عندك اطفال ؟
ـ نعم طفلان .
ـ لماذا تخبرينني هذه الاشياء ؟
ـ ولماذا اخبئها ؟

ـ لان الوهم اجمل . دعينا ننس مثلا انك متزوجة مـن رجـل انجليزي وعندك طفلان منه وانا انسى انني متزوج من امرأة انجليزية وعندي منها ثلاثة اطفال . ماذا سيكون عليه حالنا اذا نسينا ذلك ؟
ـ اخبرني عن زوجتك . هل هي مهذبة ؟
ـ آه هؤلاء الانجليز يقتلوننا بتهذيبهم . يجلسون على صدورنا . يخدعوننا كثيرا ... ولكنني لا ادري ما وراء هذا التهذيب .
وعادت الحيوية الى وجه ايفون وتساءلت :
ـ هل انت ايضا تعاني من محاولات اذابة الجليد ؟

ـ لا ... ليست عندي مشاكل من هذا القبيل . ولكن مشكلتي الرئيسية مع زوجتي هي المنطق ، الزمن ، البروتوكول . الناس الذين يجب ان نزورهم والناس الذين يجب ان يزورونا . محاولات فـرض الوجدان الانجليزي على وجداني . واحيانا اتساءل : لماذا كل هـذا العناء ؟ ومن اجل اي هدف ؟

اجتمع كيسنجر بالفيتناميين الشماليين عشرين مرة في مفاوضات سرية مطولة . ولم تعد الاجتماعات سرية الى ذلك الحد اذ ان كيسنجر صار يصطحب الصحفيين معه ويسمح لهم بتفتيش عن التصريحـات والنظريات والافكار وتفتيش دماغه بحثا عن جوارب منع الحمل .
وكلما ازدادت ايفون اقترابا من حسن كلما ازداد شكها فيما اذا

كانت سايفون ستسقط سقوطا او انها ستحرر تحريرا . ولكن اللقاءات كانت لذيذة على اي حال . وكلما اقتربت المفاوضات من موضع الحسم عاد كيسنجر الى البيت الابيض للتشاور وعاد لي دوك ثو الى هانوي للتشاور ايضا .

*

في احدى الليالي اصيبت ايفون بالارق . ولم تدر ان ريتشارد كان مؤرقا هو الاخر على سريره بجانبها . كانت تحسبه نائما . واحست عند منتصف الليل بيد تمتد الى ثديها ، يد فلفة حائرة مكبونه تجول في خوف . ثم ما لبثت اليد ان استقرت في حنان وطمانينة . ربما ان ايفون في تلك اللحظة كانت لا هي بالنائمه ولا باليقظة ولكن بين بين . ولكنها احست باليد . واستدارت الى الجانب الاخر ورفعت اليد عن صدرها وهي تقول : اذهب عني يا حسن .

وجلس ريتشارد كالمذعور في سريره : ماذا تقولين ؟ ايفون ... ايفون . فتحت عينيها :

ـ ألم تنم بعد ؟

ـ لا .. انني مؤرق .

ـ وانا ايضا مؤرقة .

ـ هل قلت شيئا ؟

ـ لا .. لم اقل شيئا . هل انت وضعت يدك عليّ ؟

ـ لا .. ارجو المعذرة اذا كانت يدي قد اصابتك اثناء تحركي .

وجلست ايفون في سريرها واعتدلت ثم استدارت اليه في عنف :

ـ لماذا كل هذه الاعتذارات والتهذيب ؟ ارجوك بحق السماء اذا كنت تريد شيئا ان تقوله . ارجوك يا ريتشارد . اعني اذا اردت ان تضحك فاضحك واذا اردت ان تغضب فاغضب واذا اردت ان تبكي فابك . انني احبك يا ريتشارد . ارجوك لا تتصرف دائما وكانك في المصرف . انني لست زبونة ... انني زوجتك .

استغرب ريتشارد ذلك الانفجار غير المتوقع . ولكنه جاء كهطول المطر من سماء مكبوتة بالغيوم . واحس كان شيئا ما في جوفه قد قام من مرقده وصار يضرب على غير هدى في جنة موحشة مظلمة . ثم وجد نفسه يرتمي في حضنها ويدفن رأسه في صدرها ويبكي .

وعندما رفع حسن رأسه كان يسألها للمرة العشرين اذا كانت تحب ريتشارد ويتوقع منها ان تنهار ذات مرة امامه وان تقول انها لا تحبه . لقد وصلا في مفاوضاتهما الى نهاية الشوط . وكانت المفاوضات تجري الان في كوخ خارج لندن . كانا يتحدثان عن الحرية والحب والسلام والاطفال . كان حسن ايضا يضرب في جنة مظلمة وكانه ينتظر فيها بزوغ الفجر . كان كانه يبحث عن شيء موجود لا يريد ان يعترف بوجوده او عن شيء غير موجود ويريد ان يقنع نفسه بانه موجود فعلا .

كانا يقفان عاريين امام بعضهما . وخفضت ايفون رأسها في حياء وقالت :

ـ لا استطيع ان افسر لك عواطفي تجاهه .

وشعر حسن بان سايفون تكاد تسقط . ولكنها اردفت :

ـ ان شعوري هو مزيج من الاشفاق والحب والولاء .

ـ طفلك يشدانك اليه ... اليس كذلك ؟

في تلك اللحظة انتابه احساس بالغباء وبردت هي وكادت ان تعود الى ثيابها ، ولكنها تساءلت فيما يشبه الحنق :

ـ لماذا تفتح مثل هذه المواضيع الان ؟

واستولى عليه برود كامل ولم يعد يرى عريها . وتنهد تنهيدة عميقة ثم قال :

ـ لا ادري ... انه احساس غريب . فكلما مسستك سمعت طفليك يصرخان ان ارفع يدك عن امي .

تراجعت ايفون امامه ولفت نفسها بشرشف ابيض فبدت كالملاك . واقترب حسن منها في عطف فقالت :

ـ ما هو شعورك تجاهي .. اخبرني ؟

ـ انني احبك .

واخذها بين ذراعيه وغرقا معا في قبلة ساعد على استعادة الدفء . وقالت ايفون في وحشية :

ـ اي نوع من الحب هو ذاك ؟

ـ سأخبرك شيئا لم تسمعي مثله في حياتك .

ـ عن ماذا ؟

ـ عن نوع حبي لك .

ـ قل ... اسرع انني احس بالبرد .

ـ حينما لقيتك اول مرة كنت اشعر بالرغبة الشديدة في ان انام معك .

ـ ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ كلما ازددت منك اقترابا كلما ازددت ابتعادا وبرودا .

ـ هذا احساس غريب .

ـ هو غريب حقا . ولكنه ليس جديدا عليّ . انك تثيرين في نفسي حنينا للوطن . احبك حب الانسان لارضه التي لا يستطيع الوصول اليها . لا اعتقد انك تفهمين ما اعني .

ساد صمت ثم قالت ايفون :

ـ لا استطيع ان افهمك . انت بذلت محاولات يائسة واوصلتني الى هذا الموقف الذي لم اكن ارغب في الوصول اليه لولا رغبتي في ان تظل لي وان نتابع لقاءاتنا .

ـ ما زلت لا تفهمين . هل اشرح لك الان قضيتي التي لم اشرحها ؟

وحدق حسن في عينيها اللتين بدأتا تتملئان بالدموع ثم لجات الى حضنه وانهمرت من عينيها الدموع . وسمعت صوته كانه اصداء في البرية : اتمنى ان اجامع فيك الابتسام وان احنو على طفليك وان اطعمهما بينما انت مشغولة عنهما . اتمنى ان يكون لكل اطفال العالم امهات فاضلات حتى لا يموت مليون طفل نتيجة قنابل اولاد البغايا . احب الا تكوني مهربا لي من العالم القاتم اصب فيك خطاياي ورذائلي . الحب هو خلاص العالم . انني هكذا لانني احبك . هل اكمل لك شرح قضيتي الان ام انك تعتقدين انني عنين لا حول لي ولا طول ؟ ما هو المطلوب مني ان افعله الان ؟ ارجوك اخبريني .

لم يدخل الثوار الى سايفون بل خرجت نساؤها يستقبلنهم وقد تحررن من الخوف والجنود الذين يحملون جوارب منع الحمل مع مخصصاتهم .

وخرجت ايفون وحسن من كوخ المفاوضات خارج لندن وهما يتناغيان ويتناغمان بينما كانت الشمس تطل لاول مرة من وراء غيوم لندن القاتمة .

فلسطين — ابراهيم ابو ناب